الفصل الثامن

ربيعة

واختلاطها بالبجة والنوبة

(٢٥٩-٣٣٢هـ /٨٧٢-٩٤٣م)

كانت لمحاولات العمري وحروبه في تلك الساحة آثار سياسية مختلفة ، فهي أولا قربت بين البجة وربيعة التي كانت معادية لمضر . وكان العمري قد جعل من نفسه زعيما على مضر . ورأت ربيعة لذلك أن تجد حليفا تركن إليه ضد سائر القبائل العربية . فلما صاهرت البجة وقويت بهم كانت في واقع الأمر قد خطت أولى الخطوات نحو بناء قوة أو دويلة في المنطقة الواقعة شرقي أسوان حتى عيذاب . كذلك رأت أنها بمصاهرة البجة في الصحراء ، والنوبة على النيل سترث في المستقبل تيجان هاتين المملكتين لأن كلتيهما كانت تسير بنظام الوراثة الملكية عن طريق الأخت أو الأم . وكانت المسألة بالنسبة لها مسألة زمن حتى إذا كثرت هذه المصاهرات لم يبق زعيم لعشيرة أو بطن من هذه الممالك الا كان من أصل ربعي .

بالإضافة إلى ذلك فقد ضمنت ربيعة إطلاق يدها في مناجم الذهب بأرض المعدن ، وأنها متى ما ازدادت غنى فإن باستطاعتها بناء دولة تزداد قوة يوما بعد يوم ، وهذا ما سيجعلها قادرة على إيجاد أرزاق لكل من والاها من القبائل العربية التي ضاقت بها الحال في مصر منذ أن قطع عنها الخليفة المعتصم أعطياتها التي كانت تتقاضاها منذ الفتح الإسلامي والتي أصبحت تمنح لرقيق الأتراك الذين أرسلهم المعتصم إلى مصر كجند للخلافة العباسية .

وقد زاد هذا الأمر شيئا فشيئا بورود المزيد من هؤلاء الأعاجم الأتراك إلى مصر فيما بعد ذلك .

وكان على ربيعة أن تجد لها زعيما مقبولا للعباسيين وولاتهم في مصر ، وأن تتجنب مثل أشهب الذي كان شيعيا وسقط صريعا على يد العمري ، إذ أن مثل هذا الزعيم الشيعي سيدعو والى مصر وهو ابن طولون منذ سنة ٢٥٥/٢٧٠هـ إلى التدخل العسكري للقضاء على مثل ذلك الزعيم .

كذلك نرى أن ربيعة بعد أن قويت قبضتها على أرض المعدن أخذت تضيق الخناق على غيرها من القبائل العربية ، وكان التبر قد أوقع " بين المسلمين المنافسة والمنازعة والحروب " . [1]

وباتباع ربيعة والبجة هذه السياسة الحكيمة المفيدة لهما والتي لا تثير مخاوف ولاة مصر في العاصمة المصرية استطاع هذا الحلف العيش بسلام ، كما أنه لم يتدخل في الأموال التي كانت تجبى لصالح الخلافة العباسية . وكانت أيام المتوكل على ما ذكر المؤرخون من أكثر العهود ازدهارا من حيث الأموال الطائلة ، وقد استمر ذلك حتى في خلافة من جاءوا بعده .

وأخذت هذه المصاهرة تلعب دورها في المنطقة ، واختلطت ربيعة بالبجة ، وصار الكثير من أبنائها المولدين من أمهات بجاوية يشعرون بأنهم سيكونون زعماء على بعض البطون والفخوذ البجاوية . وسار هذا التحالف بسياسة حكيمة بعيدا عن إثارة مخاوف ولاة مصر منهم .

---

[1] المقريزي (عن المكتبة السودانية العربية) المقفى / مسعد ص ٣٦٧.

كذلك نجد أنهم أخذوا يطردون بقية القبائل العربية شيئا فشيئا من أرض المعدن حتى جاءت سنة ٣٣٢هـ عندما كتب المسعودي " أن صاحب المعدن في وقتنا هذا هو بشر من ربيعة " [١]

وكانت هذه الفترة من الزمن فترة رخاء على كل من ربيعة والبجة ، وكان فيها الاستقرار والسلم والنشاط التجاري وانتشار الدين الإسلامي في ربوع ممالك البجة المختلفة من عيذاب إلى دهلك . وأخذت الوفود العربية من جماعات وأفراد تشق طريقها في أرض البجة دون أن تصادف أي اعتداء من البجة .

أما أبناء ربيعة فلم ينالوا حتى ذلك التاريخ أي اعتراف من السلطات بمصر بأي نوع من الزعامة السياسية أو القيادة الحربية ولم يظهر مثل هذا الاعتراف إلا عندما افتتح الفاطميون مصر ، وأقاموا دولتهم فيها ، ووجدوا تعاونا وثيقا من زعيم ربيعة في مناطق مملكة البجة والنوبة .

ونضيف بأن ابن طولون عندما تولى الولاية على مصر لم يحدث في أيامه أي اعتراض على حكمه من قبل النوبة أو البجة أو القبائل العربية . وقد أبدى ابن طولون إعجابه بالمائة حارس التركي بلباسهم الرسمي الذين كانوا تحت إمرة كاتب الخراج ابن المدبّر ، فطلب من والي الخراج أن يتنازل له عنهم بسبب الهيبة التي تحيط به وهم يسيرون أو يركبون بين يديه ، وهو في غير حاجة إليهم لأنه ليس بالوالي ، إلا أن ابن طولون على ما ظهر من سياسته لم يكن يركن إلى الجند الأتراك في سلطانه وهو العالم بمؤامراتهم ، وقوة نفوذهم في بغداد . لذلك كان حريصا على ألا يمتلك جندا منهم ، وقد

---

[١] المسعودي – مروج الذهب – الجزء الثاني صفحة ١٨ – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد / المكتبة التجارية الكبرى .

ذكر أنه كان يعتمد في بناء قواته العسكرية على أربعة وعشرين ألف جندي رومي وحوالي أربعين ألف جندي نوبي أو سوداني . وكان يلبس بعض هؤلاء الجند السودانيين زيا رسميا أسود اللون ، وحتى عمائمهم كانت سوداء [٢] فكانوا يسيرون في هذا الزي العسكري وبأعداد كبيرة كأنهم بحر عباب أسود تضئ فيه السيوف والرماح . لهذا فقد كان للسودانيين أو النوبيين أو من جاء معهم من السودان مكانة قيمة عند أحمد بن طولون ومن بعده ابنه خمارويه .

وكان هؤلاء الجند السود أحرارا في مصر وأقطع لهم ابن طولون أقطاعا للسكنى فيها فكان حيهم من أكبر الأحياء في مصر آنذاك .

ولم يحاول ابن طولون فرض سلطانه على أي من القبائل العربية في صعيد مصر وخاصة ربيعة ، وكانت المحاولة الوحيدة التي قام بها هي كف أذى العمري عن التعدي على النوبة وهو ليس الخليفة المسئول أو عامله المكلف بذلك .

ومع هذه السياسة التي فيها الكثير من الاستفادة من الجنود السودان من قبل ابن طولون ، إلا أن تجنيد هذا العدد الكبير قد أثر تأثيرا عكسيا على القوى البشرية في السودان ، وقد استمر هذا التجنيد أيضا في عهد الفاطميين وصرف النظر كليا عن القبائل العربية وإشراكها في الجيوش سواء أكان ذلك في مصر أو في العراق . وفي نفس الوقت فإننا لا نجد مثل هذه السياسة قد طبقت على أبناء البجة ، فلم يجند من شبابهم عدد ذكر في كتب مؤرخي العرب ، بل كانوا بعيدين كل البعد عن أي نظام عسكري ، ولعل السبب في ذلك حبهم الشديد للحرية ، وعدم رغبتهم في التقيد بنظام

---

[٢] العمائم السوداء رمز العباسيين

الجندية ، وعزوفهم عن هذا التقيد أو العيش في المدن وتلقي الأوامر من غيرهم والانصياع لها ، فالجندية التي يمارسونها ليست عن طريق الاحتراف ولكنها مسألة هواية طبيعية وهي جزء من حياتهم اليومية .

وقد أسهمت ربيعة في بث الأمن والسلام في صعيد مصر وصحراء البجة إذ أنها استطاعت أن توقف غارات البجة على النواحي الشرقية من صعيد مصر ، ومنعتهم من ذلك . وبهذه السياسة لم يتركوا مجالا للدولة الطولونية للتدخل المباشر في صعيد مصر أو في إخضاع البجة والنوبة إلى سلطانها .

وحتى وفاة أحمد بن طولون والي مصر من قبل العباسيين سنة ٢٧٠هـ ، كانت حياة ربيعة تتسم بالاستقرار والازدهار ، فقد امتدت مساكنها من مدينة المحدثة المحادة لأسوان ، وانتشرت جنوبا نحو مملكة النوبة على النيل ، وإلى الصحراء الشرقية حتى عيذاب عبورا بأرض المعدن في وادي العلاقي حيث أقاموا لهم عاصمة أخرى هناك أسموها النماميس . وكانت النماميس في صحراء السودان الشمالية الشرقية ، وقد حفروا بها بعض الآبار مما يوحي بأنها أصبحت مركزا حضاريا لربيعة وأصهارها البجة الذين قبلوا بها . وقد ذكر المقريزي هذه الآبار مما يدل على أهمية هذه المدينة التي أنشئت في الصحراء بالقرب من سواحل عيذاب . وقد كانت تشرف على سواحل البحر الأحمر من جهة وعلى الطريق إلى أسوان عبر الصحراء من جهة أخرى . وكانوا هم والبجة سادة الموقف في تلك الناحية لا يعترضهم فيها معترض .

وكانت ربيعة منقسمة إلى فرعين أحدهما أبناء بشر والفرع الآخر أبناء يونس . ولكن عندما رحلت القبيلة من نجد إلى تلك المنطقة في سنة

٢٣٨هـ حدث خلاف حاد بين الفرعين – أبناء يونس وأبناء بشر ، وجرت حروب بين الحيين انتهت بهزيمة أبناء يونس ، فقرروا ترك البلاد ، وتوجهوا إلى عيذاب التي كانوا قد ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، ثم عبروا البحر الأحمر إلى الحجاز ، ومن هناك إلى موطنهم في نجد . وكانت هذه الحروب في بداية عهدهم بالنزوح إلى أرض المعدن .

ثم قامت بعد ذلك حروب أيضا بين أبناء بشر أنفسهم وقتل في هذه الوقائع إسحاق بن بشر ، فأحضر مكانه من بلبيس أبو عبد الله المدعو محمد بن علي بن محمد بن يوسف المعروف بأبي يزيد بن إسحاق بن إبراهيم أبن مسروق وهذا هو ابن عم إسحاق بن بشر المقتول . ويرجع نسبه إلى مسروق بن معدي كرب بن الحارث بن مسلمة ابن عبيد بن ثعلبة حتى يصل إلى نزار بن معد بن عدنان . ومن بعد تلك الحروب التي قامت بين أبناء بشر استقرت أحوال القبيلة في ظل المصاهرة مع البجة .

وقد كانت المصاهرات أداة مهمة في تطوير العلاقات السياسية والدولية بين الشعوب المختلفة مارستها الدول الغربية والقبائل العربية في مختلف العصور ، وعرفها العرب منذ أقدم الأزمنة .

وقد قويت هذه المصاهرة إلى أن بلغت بحلول سنة ٣٣٢هـ حدا بعيدا . فقد أصبح بشر هو صاحب المعدن على ما قال المسعودي ، وكان يقتسم السلطة مع أخواله الحدربيين البجاويين وهما عبدك وكوك اللذان أورثاه الرئاسة على الأقسام الشمالية من أرض البجة وفيها الحدارب والزنافج .

وامتدت سلطة ربيعة خارج نطاق أرض البجة أيضا خلال هذه الفترة ، فيخبرنا المسعودي أن بشر بن مروان هذا كان يركب في ثلاثة آلاف مقاتل من ربيعة ومضر واليمن ، وثلاثين ألف محارب من البجة . وهذا يظهر

أن ربيعة قد أخذت خلال هذه الفترة في ضم عشائر عربية أخرى إليها بالإضافة إلى البجة ، ولا شك أن هذا كان بداية سياسة جديدة انتهجتها ربيعة لتقوية نفسها . ولا شك أن مثل هذا العدد من المحاربين كان يشكل خطورة على الدولة العباسية في مصر مستقبلا . وكان بالإمكان أن تنضم إلى بشر ومن جاء بعده من زعماء ربيعة والبجة أعداد أخرى من القبائل العربية التي بدأت تشعر بأنها بعيدة عن السلطة العباسية في مصر .

كانت كل الدلائل تشير إلى تفاقم أمر ربيعة في تلك النواحي ، ولم يكن وجودها وجود مجرد شيخ بدوي لا قوة له ، بل كان هؤلاء الشيوخ يهدفون مع مرور الزمن إلى إقامة دولة عربية لها سيادتها في تلك الأنحاء . وكان أي حاكم واع في مصر – وما أكثرهم – يعرف أن مثل هذا العدد من الجيش قوة لا يستهان بها .لا في حرب العصابات فحسب ، ولكن حتى في محاولة الاستيلاء على الحكم في مصر نفسها متى حانت الفرصة .

وكان رئيس البجة الذي جعل موطنه في المحدثة قريبا جدا من أسوان . وكانت علاقته بالنوبة طيبة فهو لم يدخل معهم فى أي نزاعات . وبسبب توفر الأمن فى المنطقة من عيذاب حتى أسوان ، واشتغال ربيعة ومن والاها من العرب فى أرض المعدن ازدهرت التجارة وعم الرخاء الذى كان له اثر كبير فى إدخال الاستقرار على المنطقة . وقد امتد هذا الرخاء والأمن حتى بعد استيلاء الفاطميين على مصر واعتلاء الحاكم بأمر ا لله سُدّة الخلافة الفاطمية فى مصر سنة ٣٥٨ هجرية .

وخلال هذه الفترة أيضا وصف اليعقوبى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ـ ٨٩٧ م)منطقة المعدن بأنها (كالمدينة العظيمة ، بها خلق من الناس وأخلاط من العرب والعجم (يقصد البجة أصحاب البلاد والنوبيين الذين كانوا

يجلبون للعمل بالمعدن) وبها أسواق وتجارات ، وأكثر من باليمامة قوم من ربيعة

انتقلوا إليها من اليمامة بالعيالات والذرية (١)[1] ولم يكن لسلطان العباسيين أي جند أو وال أو عامل فى تلك الديار بل كانت كل البلاد تحت سيطرة ربيعة وزعماء البجة .ونجد أن المصاهرة التى تمت بين الحدارب زعماء البجة وربيعة قد أثرت على معتقدات البجة .وقد اسلم الحدارب ولما كانوا هم وجوه القوم وزعماءهم فقد أصبح منطقيا أن تعتنق الرعية هذا الدين خاصة وأن العلاقة بين الحدارب وتابعيهم من الزنانج (عامة البجة) كانت علاقة سيد بمسود . وقد استمرت هذه العلاقة حتى سنة ١٩٤٧ م وكان الزعيم الحدربي يرث كل الأفخاذ والبطون التى كانت لسابقه فى قبيلته . وكان كل أفراد القبيلة يدينون له بالطاعة العمياء عن رضا وقناعة وقد ورث هذه التبعية زعماء قبائل بنى عامر حتى اتفق الجميع على ما سمى بتحرير القبائل فى سنة ١٩٤٧ م [2] وأدت هذه المخالفة إلى تقوية مركز البجة أمام مملكة النوبة . ويقول المسعودي أيضا إن هذا التحالف قد كان قوة كبيرة للبجة ولم نسمع فى خلال هذه الفترة عن حروبات بين البجة والنوبة كما كان يحدث فى السابق عند ما كان البجة يغيرون على القرى النوبية على النيل . ويبدو أن وجود ربيعة فى أراضي كل من النوبة والبجة قد أزال الكثير من النزاعات الإقليمية السابقة .

---

[1] اليعقوبى صفحة ١٤ – ١٥ من مسعد

[2] محمد صالح ضرار : تاريخ اقليم البجة – مملكة بنى عامر